Issn : 2830-912X جوان 2025	حفريّات المعرفة Hafriyat Al-marefa	المجلد 05 Vol 05 العدد 01 Num 01

تمثيلات الذاكرة والهويّة في رواية "مصائر" لربعي المدهون
-قراءة في رهانات المقاومة الثقافية-

Representations of Memory and Identity in Rabai Al-Madhoun's Novel "Destinies"

A Reading in the Stakes of Cultural Resistance

د. حياة دقي

Dr. Hayat Degui

hayat.degui@gmail.com

المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة - الجزائر

الملخص:

تُعدّ الرواية الفلسطينية المعاصرة من أبرز الحقول الأدبية التي أرّخت للنكبة، ولامست بعمق تحولات الهوية وتداعيات المنفى والشتات. ومن بين هذه الأعمال، تبرز رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" للكاتب الفلسطيني ربعي المدهون (الحائزة على الجائزة العالمية للرواية العربية عام 2016)، بوصفها نصًا سرديًا معقّد البنية، يُعيد تمثيل المأساة الفلسطينية عبر منظور سردي يتقاطع مع التراجيديا الإنسانية الأوسع، مثل الهولوكوست، حيث يستدعي المدهون في روايته ثنائية النكبة والهولوكوست ليعيد إنتاج خطاب الذاكرة والهوية، كاشفًا عن التداخل بين الشخصي والجمعي، والتاريخي والمتخيل.

وتسعى هذه الدراسة إلى تحليل تيمات اللجوء والهوية والذاكرة في الرواية، من خلال مقاربة سوسيونصية تستند إلى التحليل الموضوعاتي والبنيوي، وتستحضر خلفيات اجتماعية وتاريخية وثقافية تشكّل الحقل الدلالي للنص. كما تسلط الضوء على تقنيات السرد المتعددة التي اعتمدها المدهون، وأثرها في تجسيد تجربة اللاجئ الفلسطيني بوصفها تجربة وجودية وهوية بامتياز، وكيف تُسهم الذاكرة والسرد في إعادة تشكيل مفهوم الهوية ضمن فضاء ما بعد النكبة.

الكلمات المفتاحية: الرواية الفلسطينية، الذاكرة، الهوية، ربعي المدهون، الشتات، المقاومة الثقافية.

Abstract:

The contemporary Palestinian novel is considered one of the most prominent literary fields that chronicled the Nakba and deeply touched upon the transformations of identity and the repercussions of exile and diaspora. Among these works stands out the novel "Destinies: Concerto of the Holocaust and the Nakba" by Palestinian author Rabai Al-Madhoun (winner of the 2016 International Prize for Arabic Fiction), as a structurally complex narrative text that re-represents the Palestinian tragedy through a narrative perspective intersecting with broader human tragedy, such as the Holocaust. In his novel, Al-Madhoun invokes the duality of the Nakba and the Holocaust to reproduce the discourse of memory and identity, revealing the overlap between the personal and the collective, the historical and the imagined.

This study seeks to analyze the themes of asylum, identity, and memory in the novel through a socio-textual approach based on thematic and structural analysis, invoking social, historical, and cultural backgrounds that form the semantic field of the text. It also sheds light on the multiple narrative techniques adopted by Al-Madhoun and their impact on embodying the Palestinian refugee experience as an existential experience and identity par excellence, and how memory and narrative contribute to reshaping the concept of identity within the post-Nakba space.

Keywords: Palestinian novel, Memory, Identity, Rabai Al-Madhoun, Diaspora, Cultural resistance.

مقدمة:

تُعدّ الرواية الفلسطينية المعاصرة من أبرز الحقول الأدبية التي أرّخت للنكبة، ولامست بعمق تحولات الهوية وتداعيات المنفى والشتات. ومن بين هذه الأعمال، تبرز رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" للكاتب الفلسطيني ربعي المدهون، التي حازت جائزة البوكر العربية عام 2016، بوصفها نصًا سرديًا معقّد البنية، يُعيد تمثيل المأساة الفلسطينية عبر منظور سردي يتقاطع مع التراجيديا الإنسانية الأوسع، مثل الهولوكوست حيث يستدعي المدهون في روايته ثنائية النكبة والهولوكوست ليعيد إنتاج خطاب الذاكرة والهوية، كاشفًا عن التداخل بين الشخصي والجمعي، والتاريخي والمتخيل.

وتسعى هذه الدراسة إلى تحليل تيمات اللجوء والهوية والذاكرة في الرواية، من خلال مقاربة سوسيونصية تستند إلى التحليل الموضوعاتي والبنيوي، وتستحضر خلفيات اجتماعية وتاريخية وثقافية تشكّل الحقل الدلالي للنص. كما تسلط الضوء على تقنيات السرد المتعددة التي اعتمدها المدهون، وأثرها في تجسيد تجربة اللاجئ الفلسطيني بوصفها تجربة وجودية وهوية بامتياز.

تُعد رواية "مصائر" لربعي المدهون واحدة من أبرز الأعمال الأدبية الفلسطينية المعاصرة التي تتناول قضايا اللجوء والهوية في سياق الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وتتقاطع في هذه الرواية السرديات الشخصية والجماعية لتعيد تشكيل الذاكرة الفلسطينية وتُقَدِّم تأملاً عميقًا في الهوية المتشظية للفلسطيني في المنفى. تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة الرواية من خلال تحليل تمثيلات الذاكرة والهوية ضمن السياق اللجوئي، عبر أدوات تحليل سردي وثقافي، مع التركيز على التبكيت الزمني، وتعدد الأصوات، والبنية السردية المتشابكة.

ومنه نطرح مجموعة من الإشكاليات هي: كيف تُجسد رواية "مصائر" تمثيلات اللجوء والتحولات الهوياتية للفلسطينيين في المنفى؟ وكيف تُسهم الذاكرة والسرد في إعادة تشكيل مفهوم الهوية ضمن فضاء ما بعد النكبة؟

تعتمد هذه الدراسة على منهج تحليلي-تفكيكي ذي أبعاد سردية وثقافية، يتقاطع مع مقاربات ما بعد الاستعمار، وتحليل الخطاب، مع توظيف أدوات السرديات الحديثة وتهدف للكشف عن دور الذاكرة الجماعية والفردية في تشكيل الهوية وتحليل التقنيات السردية التي استخدمها المدهون في تمثيل اللجوء. وكذا فهم البنية المتعددة للهوية الفلسطينية كما تجلّت في الرواية.

أولا: الذاكرة والهوية في رواية "مصائر" لربعي المدهون

تمثل الذاكرة الجماعية الأساس الذي يُبنى عليه التفاعل مع الماضي وامتدادات الهوية الفردية والجماعية. وفقا للمفكر الفرنسي "موريس هالبواكس"، الذاكرة ليست مجرد استرجاع للأحداث الماضية، بل هي بناء اجتماعي يتم تشكيله عبر سرديات متغيرة وتحولات ثقافية وسياقية. تُعد الذاكرة مصدرًا رئيسيًا للهوية الثقافية، إذ أن الأحداث التاريخية المُعاشة تُسهم في تشكيل الوعي الجماعي للأفراد وتحديد شعورهم بالانتماء، أما الهوية فهي إدراك الفرد لذاته في السياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية، وتظل متغيرة وفقًا للعوامل المحيطة والتطورات الشخصية والجمعية.

وفي الأدب الفلسطيني، تظل الذاكرة مفتاحًا لفهم الهوية الوطنية، حيث يصور الأدباء الفلسطينيون تجربة الشتات واللجوء بوصفها تجربة وجودية مدمرة تُنتج شخصيات تعيش حالة من التفكك والتشظي،

ووفقًا للباحث إدوارد سعيد، فإن الذاكرة الفلسطينية تُعد عنصرًا مهمًا في الحفاظ على الهوية الوطنية، وتساهم في مقاومة النسيان من خلال استحضار تاريخ النكبة.

✓ الذاكرة الجماعية الفلسطينية: سردية النكبة

تعتبر رواية "مصائر" واحدة من أبرز الأعمال الأدبية التي تُسلّط الضوء على الذاكرة الفلسطينية، فهي تروي معاناة الفلسطينيين بعد النكبة وتربط بين الشتات الفلسطيني والنكبة، مما يخلق نوعًا من الصراع الداخلي بين التمسك بالذاكرة والتعامل معها كعبء ثقيل. هذا الارتباط القوي بالذاكرة الجماعية يعكس الشعور العميق بالفقدان ويُشكّل جزءًا أساسيًا من بناء الهوية الفلسطينية في الشتات.

تستفيد الرواية من الاسترجاع السردي كأداة رئيسية في إظهار هذه الذاكرة، عبر استخدام الشخصيات في سرد الحكايات المتعلقة بالمنفى والتهجير. هذه السرديات لا تقتصر على الحكايات الفردية، بل تفتح المجال لتمثيل التاريخ الفلسطيني من خلال عدسة الذاكرة الجماعية، التي تتحكم في كل شخصية وتُشكّل علاقتها بالمكان والزمن.

✓ الهوية الفلسطينية وتعدد الأبعاد في الرواية

تُظهر الرواية تنوع الهوية الفلسطينية في إطار الشتات، حيث يعكس كل شخصية مفهومًا مختلفًا للهوية تبعًا لتجربتها الخاصة في المنفى. ثمة تصوّرات متعددة للهوية تتراوح بين التمسك بالذاكرة الجمعية والبحث عن هوية جديدة في مكان آخر. في (مصائر)، لا تقتصر الهوية على كائن واحد أو صورة ثابتة؛ بل تتداخل الأبعاد الثقافية والإنسانية لتشكل هوية فلسطينية تتجدد باستمرار وتَخضع للتطورات الزمانية والمكانية.

ويعتمد ربعي المدهون على بنية سردية غير خطية تسمح بتداخل الأصوات، حيث تمثل الذاكرة الفلسطينية ساحة للمشاعر المتناقضة بين الخوف من الضياع والرغبة في استعادة الذات. هذا التوازي يعكس توترًا سرديًا بين الاعتراف والرفض، وبين الخصوصية التاريخية والتماثل الإنساني، مما يمنح الرواية بُعدًا إنسانيًا يتجاوز الانتماءات القومية.

يتوازي في الرواية النكبة الفلسطينية مع الهولوكوست، وهو ما يمنح الرواية بُعدًا إنسانيًا عامًا. حيث يُسائل المدهون من خلال توازي المعاناة بين الفلسطينيين واليهود في ظل المآسي التاريخية، مفهوم الهوية الفلسطينية بوصفها جزءًا من معاناة إنسانية عالمية. هذا التوازي يقوّي الذاكرة الفلسطينية ويعزز التعايش بين معاناة الشعب الفلسطيني وما يُمكن أن يعاد تمثيله من خلال تجارب إنسانية مشابهة.

من خلال استخدام تقنيات سردية متقاطعة، مثل السرد المتعدد، يعكس المدهون بشكل متقن كيف تتشابك الذاكرة الخاصة بكل شخصية مع الذاكرة الجماعية. التعدد الصوتي في الرواية يسمح لكل شخصية أن تحكي تجربتها في المنفى وفقًا لذاتها الخاصة، مما يعكس تعدد الهوية الفلسطينية في الشتات.

وردت الهوية بوصفها انقسامًا بين الداخل والخارج بما يعكسه السرد في (مصائر) الازدواجية العميقة التي يعيشها الفلسطينيون بين الداخل والشتات، حيث لا يشعر الفرد بالانتماء الكامل لأي من الجهتين، بل يظل في حالة تشظٍ وجودي: "أنا من هناك، لكنني لا أعرف إن كنت أنتمي بعد، أم أنني أنتمي إلى هناك فقط لأنني لا أنتمي إلى هنا".

من أبرز ما تميزت به (مصائر) هو تقديمها لهويات فلسطينية غير نمطية، كالمسيحيين واليهود ذوي الأصول الفلسطينية، بما يُعقّد مفهوم الانتماء: "كانت أمي تقول لي: لا تثق كثيرًا بمن يحمل هويتك، فقد يكون أقسى عليك من الغريب"، وهنا إشارة لهوية مركبة (إثنية ودينية). ترتبط الهوية الفلسطينية في الرواية ارتباطًا وثيقًا بالذاكرة، خاصة ذاكرة النكبة وتهجير المدن الفلسطينية الكبرى مثل صفد: "حين دخلت صفد، كانت المدينة مغطاة بالصمت، كأنها تعرف أنها لن تعود إلينا".

كذلك تطرح الرواية فكرة أن العودة لا تعني بالضرورة استعادة الهوية، لأن الاحتلال والتهجير قد غيَّرا المكان والزمن والناس: "أنا أزور وطني، لا أعيش فيه. أعود سائحًا إلى بيتي القديم، دون أن أستطيع طرق بابه".

✓ التداخل بين الذاكرة والزمان والمكان

الذاكرة في (مصائر) ليست ثابتة، بل هي ديناميكية ترتبط بالمكان والزمان المتغيرين. فالذاكرة تُعيد تشكيل الهوية الفلسطينية بشكل مستمر في الوقت الحاضر، وتفتح المجال لتأملات تتعلق بالزمن الضائع والوطن المفقود. يتلاشى الفاصل بين الماضي والحاضر في الرواية، وهو ما يعكس الطريقة التي يؤثر بها الزمن السياسي على الهوية الفلسطينية.

إن شخصيات (مصائر) تظهر تأثرًا عميقًا بالذاكرة الجماعية التي تحمل في طياتها الوجع الفلسطيني، وهو ما يؤدي إلى تفكك الهويات الفردية. تحاول كل شخصية أن تُعيد اكتشاف دور الذاكرة في تشكيل هويتها، لكن هذا لا يحدث بسهولة. الذاكرة تمثل عبئًا وجوديًا يتطلب مقاومة، ولكنه في الوقت ذاته مصدر قوة يضمن بقاء الهوية الفلسطينية رغم المحن.

إنّ تحليل الذاكرة والهوية في (مصائر) لربعي المدهون يُظهر أن الذاكرة الجماعية ليست مجرد أداة للسرد التاريخي، بل هي تمثل الأساس لبناء الهوية الفلسطينية في السياق المعاصر. عبر التعدد السردي وعمق التأمل في التعايش بين الذاكرة والهويات المتعددة، يُقَدِّم المدهون نموذجًا أدبيًا فريدًا يعيد النظر في تجليات الهوية الفلسطينية من خلال معاناة الشتات واللجوء. إن تأمل الشخصية الفلسطينية في هذه الرواية في علاقة الذاكرة والهوية هو تعبير عن الصراع الأبدي بين الماضي والحاضر، والبحث المستمر عن الوجود في ظل معاناة مستمرة وعالم لا يعرف الحدود.

إن الهوية في (مصائر) ليست جوهرًا ثابتًا، بل هي في حالة دائمة من التحول والتفاوض. يتوزع الفلسطيني في الرواية بين هويات متعددة: فلسطيني/إسرائيلي، لاجئ/عائد، منفي/ساكن في الوطن، شرق أوسطي/غربي. هذا التعدد لا يعكس فقط صراع الانتماء، بل يُعبِّر عن حركية الهوية في ظل واقع الشتات والاحتلال. وتلعب الذاكرة هنا دورًا محوريًا في تشكيل هذه الهوية؛ فالانتماء يُبنى عبر استدعاء الماضي وإعادة تأويله في ضوء الحاضر. كما تلعب عناصر مثل اللغة، المكان، الانتماء الديني والسياسي دورًا في تشكيل هوية هجينة ومعقدة.

تستند الرواية إلى سرديات متقاطعة لشخصيات تعيش اللجوء والمنفى، وتعيد استحضار الذاكرة الجمعية المرتبطة بنكبة 1948. تتجلى الذاكرة هنا كمحرك سردي أساسي، وكوسيلة لمقاومة النسيان ومساءلة الرواية الصهيونية للتاريخ. شخصيات الرواية تتعامل مع الذاكرة كعبء أحيانًا وكوسيلة للتماسك في أحيان أخرى، ما يعكس الصراع الداخلي بين التمسك بالوطن والاضطرار لمغادرته. تستخدم الرواية تقنية الأصوات المتعددة، حيث تُروى الحكاية من زوايا مختلفة، وهو ما يعكس تعددية الذاكرة ذاتها. فالنكبة ليست ذكرى موحدة، بل تجربة شخصية وجماعية متشظية: "كل واحد فينا عنده نكبته الخاصة، وكلها تصب في نكبة أكبر اسمها فلسطين". يُعزز هذا الأسلوب الطابع المفتوح للذاكرة، ويمنح الرواية طاقة حوارية مقاومة للنسيان.

يستثمر المدهون التوازي بين النكبة الفلسطينية والهولوكوست اليهودي كاستراتيجية سردية، لتفكيك مركزية الخطاب الإسرائيلي وتقديم معاناة الفلسطيني كمعاناة موازية ومشروعة، هذا التوازي يعكس توترًا سرديًا بين الاعتراف والرفض، وبين الخصوصية التاريخية والتماثل الإنساني، مما يمنح الرواية بُعدًا إنسانيًا يتجاوز الانتماءات القومية.

لا يُقَدِّم المدهون اللجوء كتجربة مادية فقط، بل يطرحه بوصفه حالة وجودية تؤثر على الذات والسلوك والانتماء. شخصيات الرواية تعاني من اقتلاع داخلي، ومن قلق مستمر في البحث عن جذور وشرعية وجودية. هذا التمزق ينعكس في علاقاتها بالوطن، والآخر، وحتى بالنفس.

ثانيا: الذاكرة الجماعية في الرواية: استدعاء النكبة وتفكيك السرد الرسمي

تشكل الذاكرة الجماعية المحور المركزي في الرواية، إذ تُستدعى النكبة كحدث مؤسس للهوية الفلسطينية. من خلال الشخصيات التي تروي معاناتها في الشتات، يُعيد الكاتب رسم خريطة الوجع الفلسطيني من خلال مشاهد العودة المؤجلة، والحنين إلى الوطن، والذاكرة المتورطة في الألم. يُظهر المدهون كيف تتنازع الشخصيات بين ذاكرة فردية مشروطة بالمنفى وذاكرة جمعية تفرض استمرارية الجرح. ويتم تفكيك السرد الرسمي عبر تعدد الأصوات والتجارب، ما يمنح الذاكرة طابعًا حيًّا غير مُسطَّح.

في رواية (مصائر)، تصبح الذاكرة الجماعية الفلسطينية الأداة الأقوى في مقاومة النسيان، وتثبيت ملامح الهوية المنفية والمشوشة. لا تظهر الذاكرة فقط من خلال الشخصيات، بل من خلال الأماكن والصمت وحتى الفراغ، في محاولة لاستعادة ما تم فقده قسرًا. يقول السارد: "نتذكر كي لا نموت مرتين، مرة بفعل الطرد، ومرة بفعل النسيان". بهذا الوعي، تتخذ الذاكرة وظيفة نضالية لا تقل أهمية عن الفعل السياسي.

يعيد ربعي المدهون في روايته تصوير النكبة لا بوصفها حدثًا تاريخيًا محنطًا، بل بوصفها جرحًا مفتوحًا يتجدد في الأجيال التالية. الذاكرة هنا تتجاوز الاستعادة العاطفية لتصبح مساءلة سردية للواقع. "لا أحد يروي ما حدث لنا كما نرويه نحن. ما من كتاب تاريخ يعلمنا كيف نحمل مفاتيح البيوت في الجيوب دون أن ننكسر". بهذا الطرح، يُقَدِّم المدهون تفكيكًا للرواية الرسمية التي غالبًا ما تختزل النكبة في سياق سياسي عام، بينما تكشف الرواية عن الجانب الإنساني والمأساوي الذي يتوارى خلف الأرقام.

تتجاوز الرواية حدود الحكاية الشخصية لتصبح شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية. فالسرد هنا يُقَدَّم كبديل عن فقدان المكان، وكوسيلة لحفظ الذاكرة الجماعية. وتُستخدم الحكاية كأداة لإعادة بناء الوطن المفقود والمتخيل، مما يسمح بتوسيع مفهوم الهوية الفلسطينية لتشمل من هم خارج الجغرافيا. في هذا السياق، يوازي المدهون بين تجربة النكبة والهولوكوست دون الوقوع في مساواة مبسطة، بل لتأكيد الشرعية الإنسانية للمعاناة الفلسطينية، ولتحدي السرديات الإقصائية.

وتحضر المدن الفلسطينية المُهَجَّرة في الرواية ككائنات حية مفعمة بالذاكرة، من صفد ويافا والرملة، إلى غزة وحيفا. هذه المدن لا تُستعاد فقط بصورها، بل بأصواتها وأرواحها: "صفد لم تكن ترحب بي، لكنها كانت تتعرف عليّ بصمت، كأنها تعرفني من نبرة الحنين في خطواتي". بهذا الأسلوب، تتحول المدينة إلى شخصية تشارك في السرد، وتصبح الذاكرة ملموسة ومجسدة.

كما يلجأ المدهون إلى الكتابة الروائية كوسيلة لتفكيك الخطاب التاريخي الرسمي، سواء الإسرائيلي أو العربي، من خلال إبراز التناقضات وإعطاء صوت للمهمشين: "نحن لا نبحث عن صفحات في كتبهم، بل نكتب صفحاتنا بأنفسنا، على جدران المخيم، وعلى وجوه أطفالنا". بهذا المعنى، تتحول الرواية إلى أرشيف مضاد، يُنقذ الذاكرة من الحذف ويعيد امتلاك السرد الفلسطيني.

خاتمة:

تكشف رواية (مصائر) عن ديناميات معقدة للذاكرة والهوية في سياق اللجوء الفلسطيني فالمدهون لا يعيد فقط كتابة سردية النكبة، بل يعيد تفكيك مفاهيم الوطن والهوية والانتماء من خلال بناء سردي متعدد ومفتوح. الذاكرة في الرواية ليست مجرد استدعاء للماضي، بل هي فاعل سردي يُشكِّل الحاضر ويُعيد تشكيل الذات الفلسطينية. بذلك، تنجح الرواية في تقديم خطاب أدبي وثقافي يُقاوم النسيان ويفتح المجال لتصور أكثر شمولاً وإنسانية للهوية الفلسطينية.

تمّكن ربعي المدهون في (مصائر) من تقديم رواية مركبة، تتجاوز التوثيق إلى مساءلة الرواية التاريخية السائدة، وتعيد تشكيل الهوية الفلسطينية من خلال خطاب الذاكرة. تسهم الرواية في بلورة أدب لجوء قادر على ملامسة التجربة الإنسانية في عمقها، من خلال جماليات سردية محكمة وأفق إنساني يتجاوز المحلي إلى الكوني.

قائمة المراجع:

1. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997.

2. بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: كامل اليازجي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.

3. بنديكت أندرسون، الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة ثائر ديب، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

4. ربعي المدهون، مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2016.

5. عبد الرحمان حجازي، الهوية والاغتراب في الأدب الفلسطيني، عمّان: دار مجدلاوي، 2012.

6. فريال الجندي، سرديات المنفى: دراسات في أدب المهجر الفلسطيني، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2020.

7. موريس هالبواكس، الذاكرة الجماعية، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال، 2007.

8. نادية الرافعي، الذاكرة والسرد: دراسات في الرواية العربية المعاصرة، بيروت: دار الفارابي، 2015.